فى الأدب الشرقى

فى الادب الصينى

القصة الحديثة

فى الأدب الصينى

مترجمة عن مجلة الشهر الفرنسية

ليست القصة الصينية بنت الأمس، وإنما يرجع مولدها الى عهد أسرة (Tcheau) تشيو وكانت تسمى يومئذ (سياوشوو) أى المناسبات الضئيلة، وكتابها الأولون هم لى يوكيو، وتشو، وانغ تسو، وتشنغ شى تسو.

فالاول كان من رجال القرن الرابع قبل الميلاد، والآخران قد نبغا بعده بقرن وقصصهم كانت تستمد موضوعاتها من الاساطير والخرافات والامثال، ولبثت القصة فى هذا الطور الابتدائى أمداً طويلا حتى ولى الحكم أسرة (طنغ) (٦١٨ — ٩٠٧) فدبت فيها الروح وسارت فى طريق الكمال.

كان العمل الروائى فى الاقاصيص والحكايات يتقدم شيئاً فشيئاً خلال القرون الخالية حتى أصبح قبيل العهد (الطونغى) مسلاة أدبية. وكان القصص على شدة قصره لايجرى على خطة مقررة فأقره كتاب العصر الطونغى فى نصابه من العناية والفن فجددوا الغاية، ورسموا الطريقة وبسطوا العمل، ودققوا التفاصيل، وجودوا الأداء، حتى أصبح أجل المظاهر فى الأدب الصينى بعد أن كان موضع الزراية والاحتقار عند اشياع كونفشيوس.

كانت الاساطير وحياة النابهين فى الشرف أو النابهات فى الحسن موضوع الاقصوصة من أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع فكتب (ونغ تسو) (حياة مرآة قديمة) وهى أقصوصة بطلتها مرآة سحرية مغامرة صرعت ثعلبة مسحورة تحولت الى امرأة، ثم قهرت أفعوانا ضخما كان قد اتخذ وكره فى أصل شجرة، ثم قتلت قرداً وسلحفاة فاستحالا الى انسانين أخذا يحاضران فى العلم والسحر الخ وكل مغامرة من هذه المغامرات يحكيها القصصى بثقة، ويصدقها القارىء ببساطة. وفى النصف الاخير من القرن الثامن ظهرت أقصوصة أخرى شهيرة، وهى أقصوصة المقام فى مخدة تأليف (شن كى تسى) وموضوعها أن (لو) الخالد أعطى أحد الشبان مخدة سحرية فدخل فيها ورأى رؤيا عجيبة يقصها فتستغرق أعاجيبها كل الحكاية. ثم ظهرت على أثر ذلك أقاصيص الابطال فغلبت على أذهان القصاص والقراء حتى اليوم، فالبطل ذو السيف لايعجزه شىء ولا تنقصه موهبة فهو يطير، وله سيف يدرك ويشعر فهو فى السلم يقصر ويختفى فى أنف البطل أو فمه وفى الحرب يخرج ويقتل العدو على أى مسافة يريدها صاحبه، وللصينيين ولوع بهذا الضرب من القصص حتى فى نهضتهم الحديثة، وبجانب أقاصيص الخوارق والاعاجيب تجد سير العظماء والامراء محكية على نمط تاريخى أو روائى أو هجائى كسيرة (لى كوى) وسيرة (ينغ — ينغ) ولكن فى النادر أن تجد فى الادب الصينى حكاية أو سيرة تقوم على الواقع وحده، فالكتاب على الجملة يميلون الى تزيين الحقيقة بالمبالغة والتزيد فيجرهم ذلك الى فقد الوحدة أو عدم التوازن أو خطأ المغزى.

أما القصة الطويلة ذات الفصول فلم تظهر إلا فى عهد آل سونغ من ٩٦٠ الى ١٢٧٩ م وهم يسمونها (بنغ هويا) منشؤها فى الصين كمنشئها فى سائر بلاد الشرق: رجل يسمونه (المحدث) يقص على الناس فى مجلس عام حكاية من الحكايات بالاجر، فمن فائدته إذن ان يطيل الحكاية ما أستطاع لينتفع من ورائها فى جلسات كثيرة، والجزء الذى يحكيه فى جلسة من هذه الجلسات

ماذكره هيرودوت من أنه وجد فى مصر عند زيارته لها عشرين الف مدينة عامرة. وقد أدت زيادة السكان طبعاً الى نقص الأجور وتفاوت الطبقات تفاوتا عظيما، بلغ حد التأليه للملوك، ونزل بطبقة العمال الى هاوية التسخير غير المأجور، كما يتضح من بناء الاهرام وما اليها.

ليست أحداث التاريخ فوضى لاضابط لها كما يتبادر الى الأذهان التى تقف عند النظر السطحى، ولكنها تبدو للذى يستبطن دخائلها، خاضعة لقانون محكم لايشذ، ومنطق سليم لاعوج فيه ولا التواء.

زكى نجيب محمود

يؤلف فصلا من فصول السيرة وظلت (الينغ هويا) على هذا النمط الأولى حتى جاء (لوبن) ١٣٣٠ ـ ١٤٠٠ فى عهد آل يوان فجعلها فنا ، كان يقتبس موضوعاته من التاريخ ولكنه يضيف اليها وقائع واشخاصا من عمل الخيال . وكان يصور أبطاله على نحو مايفعل القصصيون الاوربيون اليوم . كتب (لوبن) عشرات من القصص ولكن أفضلها واجملها قصته المسماة (على شاطىء البحيرة) تقع فى مائة فصل وتدور على مخاطرات بطل يدعى (سونغ كيانغ) مع رفاقه المائة والسبعة ـ وهو شخص تاريخى ورفاقه كانوا ستة وثلاثين ليس غير ـ وكانوا يحتلون (اليانغ شان) ثم ثاروا على اسرة سونغ الحاكمة فهاجموا مدنها وقاتلوا جيشها ونهبوا مقاطعاتها وأصبحوا حكاما فى هذه الارض . وهؤلاء العصاة الفتاك كانوا من خيار الناس فالجأهم الى هذا الموقف عسف الامبراطور ومن هاواه من الخونة.

ولم يكن هم (لوبن) ان يخلق أشخاصا ويصف اخلاقا وانما كان همه فوق ذلك أن يرمى الى غرض أخلاقى، وتلك هى الصفة الغالبة على الآداب الصينية، فالكتابة عند كتاب الصين وسيلة الى الخلق، والشعر عند شعرائها طريق من طرق التربية . والاخلاق عند (لوبن) قائمة على الديمقراطية، فهو يؤلب الاخيار المضطهدين على الاسرة الحاكمة، ويحارب الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب، فلا يعترف الا بصنفين من الناس: الشجعان والاذكياء، وهؤلاء وأولئك ملزمون أن يعملوا لخير الأمة ، ولا بأس أن يعيشوا عيش اللصوص وقطاع الطرق مادامو ا يذودون بذلك عن المظلومين والمحرومين .

ثم ظهرت بعد ذلك طائفة كبيرة من القصص على عهد آل (منغ) من سنة ١٣٦٨ — ١٦٦٢ م ولكن قصتين اثنتين من بينها تلفتان النظر وتسترعيان الخاطر وهما (حكاية رحلة الى بلاد المغرب، و(رهور الشر فى أصيص من الذهب) فالأولى قصة وهمية كثيرة المخاطر الخارقة والأوهام العجيبة . والثانية قصة نفسية (بسيكولوجية) لمؤلف مجهول تدور على ما وقع من المخاطر الغرامية لغنى من الاغنياء اسمه (سى من كنغ) وهو متبطل شهوان محصن ولكن له اخدانا كثيرات، والقصة تعرض بالتفصيل حياة هؤلاء الخليلات الخاصة، وتشتمل على فصول من الفحش والرجس، والدنس ولكنها غاية فى التحليل النفسى للمرأة، والدقة فى وصف المشاهد ، والتنويع فى مساق الحوادث

وفى عهد آل (تسنغ) ظهرت أنواع كثيرة من القصة كالقصة العلمية، ويمثلها قصة عنوانها (ثرثرة شيخ قروى يتشمس) للقصصى (هيا كنغ كيو) من كتاب القرن السابع عشر، وقصة أخرى عنوانها (حظ الازهار المنعكسة على الثلج) للكاتب (لى فوتشن) من رجال القرن الثامن عشر، فالأولى تخوض فى أحاديث شتى عن الفلسفة والكتب القديمة وأمانة الوزراء وتقوى الابناء والمكائد والفنون والطب والاخلاق وغير ذلك مما جعلها دائرة معارف هى إلى الدعوى والافتراء اقرب منها الى العلم الصحيح . وأما الثانية فهى بحث علامة جليل عالج فيها كثيرا من المسائل النسائية وعلى الاخص مساواة الجنسين، وهذا فى الأدب الصينى شىء جديد.

والقصة الاخلاقية ظهرت فى هذا الحين، وهى تقص حكايات الممثلين والممثلات ، وتصف أخلاق البغايا والمومسات، ثم ظهرت فى القرن التاسع عشر القصة الهجائية فهجم بها الكتاب على الاسرة الحاكمة التى طواها الموت، ورشقوا بسهام النقد طبقة العلماء والموظفين (Les Mandarins) . على أن الانواع القديمة كالاقاصيص الخرافية والقصص التحليلية وسير الأبطال استمرت تؤتى أكلها فى عهد آل (تسنغ).

تلك كانت حال القصة الصينية حينما ظهرت بواكير الثورة الأدبية فى القرن التاسع عشر فتفتحت اليوم عن ادب حديث يشعر على حداثته بحقيقته ومصيره.

***

كانت الثورة الصينية ثورة سياسية واجتماعية وثقافية فى وقت معا. ففى السياسة أدت الى سقوط الملكية وقيام الجمهورية ، وفى الاجتماع أفضت الى اقتباس الاخلاق الغربية . وفى الثقافة هدت الى اكتشاف العلوم والافكار الأوربية . والفضل فى هذا الاكتشاف للأديبين (ين فو) (١٨٥٣ — ١٩٢١) و (لن شو) (١٨٥٢ — ١٩٢٤) فان الاول نقل الى الصين فلسفة (هكسلى) و (ستيوارت مل) و (سبنسر) و (سميث) و (جنكس) و(جفونس) و (وستراب) و (منتسكيو) ونقل الثانى قصص (ستيفنس) و (ديكنز) و (ولترسكوت) و (كونان دويل) و (واشنطون أرفنج) و (فكتورهوجو) و (دوماس) و (بلزاك) و (سرفنتيس) و (تولستوى) فكان لما ترجماه أثر بالغ فى الفكر الصينى الحديث .

فنذ الساعة الاولى فكر رسل الثورة الاجتماعية فى اتخاذ القصة وسيلة للدعاية، وقد قال (ليانغ كى تشاو) وهو صحفى من المدرسة الحديثة : « يجب ان نبدأ اليوم بثورة فى القصة، فانا لا نستطيع أن نخلق شعبا جديدا الا بقصة جديدة »

يؤلف فصلا من فصول السيرة وظلت (الينغ هويا) على هذا النمط الأولى حتى جاء (لوبن) ١٣٣٠ ـ ١٤٠٠ فى عهد آل يوان فجعلها فنا، كان يقتبس موضوعاته من التاريخ ولكنه يضيف اليها وقائع واشخاصا من عمل الخيال. وكان يصور أبطاله على نحو مايفعل القصصيون الاوربيون اليوم. كتب (لوبن) عشرات من القصص ولكن أفضلها واجملها قصته المسماة (على شاطىء البحيرة) تقع فى مائة فصل وتدور على مخاطرات بطل يدعى (سونغ كيانغ) مع رفاقه المائة والسبعة ـ وهو شخص تاريخى ورفاقه كانوا ستة وثلاثين ليس غير ـ وكانوا يحتلون (اليانغ شان) ثم ثاروا على اسرة سونغ الحاكمة فهاجموا مدنها وقاتلوا جيشها ونهبوا مقاطعاتها وأصبحوا حكاما فى هذه الارض. وهؤلاء العصاة الفتاك كانوا من خيار الناس فالجأهم الى هذا الموقف عسف الامبراطور ومن هاواه من الخونة.

ولم يكن هم (لوبن) ان يخلق أشخاصا ويصف اخلاقا وانما كان همه فوق ذلك أن يرمى الى غرض أخلاقى، وتلك هى الصفة الغالبة على الآداب الصينية، فالكتابة عند كتاب الصين وسيلة الى الخلق، والشعر عند شعرائها طريق من طرق التربية. والاخلاق عند (لوبن) قائمة على الديمقراطية، فهو يؤلب الاخيار المضطهدين على الاسرة الحاكمة، ويحارب الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب، فلا يعترف الا بصنفين من الناس: الشجعان والاذكياء، وهؤلاء وأولئك ملزمون أن يعملوا لخير الأمة، ولا بأس أن يعيشوا عيش اللصوص وقطاع الطرق ماداموا يذودون بذلك عن المظلومين والمحرومين.

ثم ظهرت بعد ذلك طائفة كبيرة من القصص على عهد آل (منغ) من سنة ١٣٦٨ — ١٦٦٢ م ولكن قصتين اثنتين من بينها تلفتان النظر وتسترعيان الخاطر وهما (حكاية رحلة الى بلاد المغرب، و(رهور الشر فى أصيص من الذهب) فالأولى قصة وهمية كثيرة المخاطر الخارقة والأوهام العجيبة. والثانية قصة نفسية (بسيكولوجية) لمؤلف مجهول تدور على ما وقع من المخاطر الغرامية لغنى من الاغنياء اسمه (سى من كنغ) وهو متبطل شهوان محصن ولكن له اخدانا كثيرات، والقصة تعرض بالتفصيل حياة هؤلاء الخليلات الخاصة، وتشتمل على فصول من الفحش والرجس، والدنس ولكنها غاية فى التحليل النفسى للمرأة، والدقة فى وصف المشاهد، والتنويع فى مساق الحوادث

وفى عهد آل (تسنغ) ظهرت أنواع كثيرة من القصة كالقصة العلمية، ويمثلها قصة عنوانها (ثرثرة شيخ قروى يتشمس) للقصصى (هيا كنغ كيو) من كتاب القرن السابع عشر، وقصة أخرى عنوانها (حظ الازهار المنعكسة على الثلج) للكاتب (لى فوتشن) من رجال القرن الثامن عشر، فالأولى تخوض فى أحاديث شتى عن الفلسفة والكتب القديمة وأمانة الوزراء وتقوى الابناء والمكائد والفنون والطب والاخلاق وغير ذلك مما جعلها دائرة معارف هى إلى الدعوى والافتراء اقرب منها الى العلم الصحيح. وأما الثانية فهى بحث علامة جليل عالج فيها كثيرا من المسائل النسائية وعلى الاخص مساواة الجنسين، وهذا فى الأدب الصينى شىء جديد.

والقصة الاخلاقية ظهرت فى هذا الحين، وهى تقص حكايات الممثلين والممثلات، وتصف أخلاق البغايا والمومسات، ثم ظهرت فى القرن التاسع عشر القصة الهجائية فهجم بها الكتاب على الاسرة الحاكمة التى طواها الموت، ورشقوا بسهام النقد طبقة العلماء والموظفين (Les Mandarins). على أن الانواع القديمة كالاقاصيص الخرافية والقصص التحليلية وسير الأبطال استمرت تؤتى أكلها فى عهد آل (تسنغ).

تلك كانت حال القصة الصينية حينما ظهرت بواكير الثورة الأدبية فى القرن التاسع عشر فتفتحت اليوم عن ادب حديث يشعر على حداثته بحقيقته ومصيره.

***

كانت الثورة الصينية ثورة سياسية واجتماعية وثقافية فى وقت معا. ففى السياسة أدت الى سقوط الملكية وقيام الجمهورية، وفى الاجتماع أفضت الى اقتباس الاخلاق الغربية. وفى الثقافة هدت الى اكتشاف العلوم والافكار الأوربية. والفضل فى هذا الاكتشاف للأديبين (ين فو) (١٨٥٣ — ١٩٢١) و (لن شو) (١٨٥٢ — ١٩٢٤) فان الاول نقل الى الصين فلسفة (هكسلى) و (ستيوارت مل) و (سبنسر) و (سميث) و (جنكس) و (جفونس) و (وستراب) و (منتسكيو) ونقل الثانى قصص (ستيفنس) و (ديكنز) و (رلترسكوت) و (كونان دويل) و (واشنطون أرفنج) و (فكتورهوجو) و (دوماس) و (بلزاك) و (سرفنتيس) و (تولستوى) فكان لما ترجماه أثر بالغ فى الفكر الصينى الحديث.

فنذ الساعة الاولى فكر رسل الثورة الاجتماعية فى اتخاذ القصة وسيلة للدعاية، وقد قال (ليانغ كى تشاو) وهو صحفى من المدرسة الحديثة: «يجب ان نبدأ اليوم بثورة فى القصة، فانا لا نستطيع أن نخلق شعبا جديدا الا بقصة جديدة»

ولكن الصعوبة الوحيدة . هي اللغة . فان لغة الكتابة تختلف عن لغة التخاطب، ولغة التخاطب نفسها تختلف فى اقليم عنها فى اقليم بل فى مدينة عنها فى مدينة. فالمدرسة الحديثة حاولت أن تقرب بين لغة الكتابة ولغة الخطاب. ولكن أى لغة من لغات التخاطب تجعلها نموذجا ومثلا ؟ وهل تضطلع حروف الهجاء الصينية - وهى لحسن الحظ واحدة فى جميع المدن والأقاليم - بهذا الاصلاح ؟ ان توحيد التعليم العام يقتضى لغة كتابية يقبلها كل الناس . واللغة المندرينية لا يمكن أن تكون على حالتها هى تلك اللغة.

ففى سنة ١٩١١ م أسست الجمهورية الناشئة مجمعاً عاما أصلح هذه اللغة وجعلها لغة وطنية ، ثم وضع لها تسعاً وثلاثين علامة صوتية، تساعدها على الانتشار بين طبقات الشعب، ومنذ ذلك الحين أصبح فى امكان الكاتب أن يؤلف القطع الادبية، ويكتبها بالحروف الصينية. فتتفق مع اللغة الوطنية ، وهذه اللغة المكتوبة الجديدة التى يفهمها الصينيون على السواء قد أطلقوا عليها اسم (بو هويا) أى اللغة الواضحة . والادب الصينى فى هذه اللغة العامة لا يرجع تاريخه الى أكثر من اثنتى عشرة سنة

وليس هذا كل الاختلاف بين الادب الحديث والأدب القديم . فان الفكر الصينى قد تغير جملة واحدة، فرجال المدرسة القديمة كانوا يصرون على تقليد القدماء تقليدا عقيما جر عليهم الغرابة والتقيد والجفاف، حتى جاء فى سنة ١٩١٦ أحد المحدثين وهو (هوشى) فاقترح ثمانى وسائل لتجديد الادب القديم كانت أساسا لبناء الادب الحديث وهى (١) ألا يلمح الادباء الى شىء من التاريخ والأدب والأساطير فى غضون النثر والنظم (٢) الا يستعملوا الحكم المأثورة والأمثال السائرة اتقاء للابتذال (٣) الا يسرفوا فى البحث عن الاقيسة النحوية والمقابلات البيانية وعلى الأخص فى الشعر (٤) الا يتجنبوا الالفاظ العامية والتراكيب الشعبية (٥) أن يعنوا أشد العناية بالانشاء (٦) الا يئنوا مالم يحسوا فى أنفسهم الحاجة الى الانين (٧) ان يعتدوا بشخصياتهم فلا يقلدوا القدماء فى شىء (٨) ألا يكتبوا إلا اذا جال فى خواطرهم ما يريدون أن يكتبوه

فاذا كانت الفلسفة الصينية اليوم فى وقوف ، والتاريخ غير موجود، والانتاج المسرحى قليل القيمة، والشعر لم ينطلق بعد من أسار التقليد، فان القصة تنمو وتزدهر معتمدة فى تجديدها وتأييدها على ثلاثين مجلة تحلها من صفحاتها المحل الاول، أهمها القصة الجديدة (LeNouveau Roman) ومجلة القصة الصغيرة (magazine The short stary)

القصة الصينية الحديثة واقعية (Réaliste) كالقصة الغربية فلا تأبه مطلقا للتقاليد ولا تتصل بالاساطير والخوارق. وكتابها لا تعوزهم القرائح الخصبة ولبعضهم قصص جليلة الشأن عظيمة الخطر، ولكنك لا تجد فيها ذلك السحر الأخاذ، ولا ذلك الجو الاثيرى النقى ، ولا تلك الخفة التى كانت تميز القصة القديمة وتلونها باللون الصينى الخالص. فان القصة الحديثة اقتبست من القصة الغربية الشكل والاصطلاح والروح أيضاً، والمشابهة شديدة بين الحكايات الحديثة فى الصين وبين بعض الاقاصيص فى أمريكا، واذا قرأت حكاية (كونغ يى كى) للكاتب (لوسين) حسبتها مكتوبة بقلم شروود اندرسون

من القصصيين المعاصرين (تشنغ تسوينغ) وهو كاتب وافر الانتاج، ويعزون هذه الوفرة الى انه يشترى قصص المفلوكين من الادباء بثمن بخس ثم ينشرها تحت اسمه. وقد انفرد بمعالجة نوع واحد من المشاكل الاجتماعية، وهو تضارب العواطف بين ثلاثة أشخاص رجلين وامرأة أو امرأتين ورجل وليس فى قصصه أصالة فكرية ولا لأسلوبه قيمة أدبية ولكنه مع ذلك أكثر الكتاب قراء وأبعدهم سمعة .

ثم (كوو موجو) وهو زعيم المذهب العمالى Ecole Prolétarienne الذى يعنى اتباعه بمعالجة الموضوعات الخاصة بالفقراء الذين، يعيشون على عملهم وهو يدير اليوم حركة الدعاية الشيوعية ضد الحكومة، ويؤلف فى سبيل ذلك الاقاصيص والروايات والخطب ولكن حظها من الفن قليل . فاذا نسى السياسة وكتب للأدب تكشف لك عن قصصى سمح القريحة واضح الطريقة .

ثم (يى شاو كيون) و (يو تافو) وهما قصصيان من الطراز الاول ، ولا يعالجان غير القصة الاخلاقية ، يصفان فيها جوانب الفقر والفسق والبؤس من حياة الشعب الصينى فى المدن الكبرى

ثم (ينغ ناغان) وهو معدود فى طبقة الكتاب النابهين

ولكن أرفع القصصيين المحدثين ذكرا وأسماهم مكانة هو (لوسين) له مجموعتان من الاقاصيص عنوان الاولى (صرخات الحرب) وعنوان الثانية (اضطراب البال) ونتاجه على قلته موسوم بسمة الجمال والعبقرية

وسنترجم فى الاعداد المقبلة قصة له وأخرى ليانغ ناغان تمثلان الروحين الشائعين، والاتجاهين المختلفين فى القصص الصينى الحديث.